المعطى الصَّوتي في القرآن الكريم

(مظاهره وعلله)

Phonetic data in the Holy Quran
(Manifestations and evidence)

د. فاطمة حجَّاري بجامعة أبي بكر بلقايد- تلمسان (الجزائر)

Hadjarifatima07@gmail.com

تاريخ الإيداع : 2018/06/10 **تاريخ القبول**: 2018/12/02

الملخَّص :

يتحدث الدَّارسون اليوم عن أوَّلية الدَّرس الصَّوتي ضمن دروس العربية، ويرجعون السَّبب في ذلك إلى كون الخطأ الذي بدأ يظهر على الألسنة كان في البداية خطأ في النُّطق وتحريفا لحركات أواخر الكلم . إلا أن نظرة متأنية في تاريخ هذا الجانب من اللغة يبيّن تلازمية مُهمة بين كتاب الله عز وجل وهو أرقى شواهد العربية ، وبين الأداء الصَّوتي الصحيح للُّغة العربية ، من هنا تحاول هذه المقالة الإجابة عن التساؤلات التالية : ما العلاقة التاريخية بين علم الأصوات والذكر الحكيم؟ ما أشكال عناية الذكر الحكيم بالجانب الصوتي والأدائي للغة العربية ؟ كيف استثمر علماء العربيَّة علاقة علم الأصوات بالقرآن الكريم في محاولتهم لوضع أسس علم الأصوات ؟

الكلمات المفتاحية : علم الأصوات – القرآن الكريم – المعطيات الصَّوتية – الأداء الصَّوتي .

Abstract:

Nowadays, scholars are talking of the primacy of phonology in Arabic didactics because the most common Arabic mistakes are due to mispronunciation and misconjugation. However, careful historical look at this language aspect shows a significant correlation between the book of allah the almight as being the finest reference of Arabic language and the accurate of Arabic pronunciation. This paper is an attempt to answer the following question : what is the relationship between phonology and the holy Quran ? what are the forms of consideration for the phonetic aspect and pronunciation by the holy Quran and the Sunnah ? How did the Arabic scholars invest the relationship between phonology and the holy Quran in their attempt to lay the foundations of phonology?

key words :

Phonetics -The Holy Quran -Voice data -Voice performance

- **مقدمة** :

كرَّم الله عز وجل اللغة العربية بأن جعلها الحاملة لكتابه العزيز ، وكرَّم أمة العرب بأن جعل تلقي كتابه من نبيَّه الكريم بما يلائم قدرات الإنسان العربي، الجاهل بالقراءة والكتابة، فجعل وحيه لنبيه عن طريق السماع وسار النبي صلى الله عليه وسلم على هذا المنهاج في تبليغ كلام المولى عز وجل، فلقَّنه لصحابته ثم سمعه منهم ثم طلب التَّوسعة على أمَّته في قراءة الكتاب فكان حديث الأحرف السبعة[1].

إن هذه المراحل مبناها ومبتدأها وقف على مستوى صوتي يستجوب العناية والتمحيص، لا سيما أن كتاب الله عز وجل سينقل العقل العربي إلى مراحل متقدمة تدفعه إلى الإبداع في شتَّى مجالات العلوم والمعرفة، وتفصيل كل هذا فيما يلي :

- **النزول الصَّوتي للقرآن الكريم :**

نزل القرآن الكريم نزولا صوتيا، ولم ينزل مدوَّنا في سطور أو مكتوبا في كتاب بخلاف الكتب السماوية الأخرى ففي شأن التوراة مثلا، يقول عز وجل﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيءٍ مَوْعِظَةً وتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُر قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُورِيكُم دَارَ الفَاسِقِين ﴾[2]، وعن القرآن الكريم جاء في السنة النبوية، أن **الرسول صلى الله عليه وسلم**، قال: "إن الله إذا تكلم بالوحي سمع أهل السماء للسماء صلصلة كجر السلسلة على الصفاء، فيصعقون، فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل، فإذا جاءهم جبريل فزع عن قلوبهم، قال : ويقولون يا جبريل ماذا قال ربكم، قال: فيقول الحق، قال فينادون الحق الحق.[3]"

يوضح هذا الحديث أن الله تعالى يتكلم بالوحي، ويتلقى جبريل هذا الكلام صوتا شديدا فيتبع المنهج ذاته في تبليغ ما سمعه إلى الرسول عليه السلام، وهذا ما يسجله الحديث النبوي الموالي: "عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن الحارث بن هشام رضي الله عنه، سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم، أحيانا يأتي مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني، وقد وعيت ما قال، وأحيانا يأتيني الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول

[4]" وبهذا فإن القرآن قد بلغ محمدا صلى الله عليه وسلم صوتا مسموعا عن طريق ملك الوحي أو دونه، وهذا التلقي الصَّوتي تؤكده آيات ووقائع كثيرة نثبت منها،"[5] قوله تعالى﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنْسَى﴾ ،[6] وقول **ابن عباس** : كان رسول الله يعالج من التنزيل شدة وكان مما يحرك شفتيه ... ، فأنزل الله تعالى ﴿ لاَ تُحَرِّك بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِه (26) إِنَّ عَلَينَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَه﴾[7]،قال جمعه لك في صدرك وتقرأه﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاه فَاتَّبِع قُرْآنَه﴾،[8] فقال استمع له وأنصت﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾[9] ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع فإذا انطلق جبريل قرأه النبي صلى الله عليه وسلم كما قرأه .[10]

فهذه النصوص القرآنية والحديثية وغيرها كثير تقرر طبيعة النزول الصوتي للقرآن الكريم من الله تعالى إلى جبريل عليه السلام ثم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم الَّذي لم يكن فظلا عن ذلك كاتبا قارئا ،بل رسولا مبلغا مبينا ،وطالما وصفه القرآن نفسه بالرسول الأميّ المبعوث في الأميين، كقوله تعالى﴿ هُو الَّذي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّن رَسُولاً مِنْهُم يَتْلُوا عَلَيْهِم ءَايَاتِهِ

ويُزَكِّيهِم ويُعَلِّمُهُم الكِتَابَ والحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾ ،[11] فهو لا يعرف الكتابة ولا القراءة من ما هو مكتوب ، وذلك بخلاف غيره من الأنبياء .

وبعد أن تلقَّاه النبي صلى الله عليه وسلم تلقيًّا صوتيًّا ، جاء دور التبليغ الَّذي بُني على هذا الأساس أيضا.

- **التَّبليغ الصَّوتي للقرآن الكريم :**

ثبت أن النبي كان يستحفظ أصحابه ماينزل عليه من القرآن عقب نزوله، وكان له كتَّاب يكاتبون بين يديه، وبأمره وإقراره يما ينزل عليه، وكانوا على ما اعتاد العرب يكتبونه في اللِّحاف والعسب ..... .[12] وروى البخاري عن البراء ،قال لمَّا نزلت ﴿ لاَ يَسْتَوِي القَاعِدُون مِنَ المُؤْمِنِين﴾،[13] قال النبي صلى الله عليه وسلم ((ادع لي زيدا)) - يريد زيد بن ثابت- ، وليجيء بالكتف والدَّواة . والمسلمون مجموعون على أن الصَّحابة ما كانوا يكتبونه إلا لمَّا كانوا يقطعون بسماعه من النبي صلى الله عليه وسلم.[14]

فقد بلَّغ النبي الكريم القرآن تبليغا صوتيا شفهيا إلى الصحابة ثم إلى الناس كافة، ولقد تلاه النبي صلى الله عليه وسلم بدوره على الناس تلاوة صوتية من فمه يبلغهم به عن طريق هذه التلاوة فتلقوه منه بأسماعهم، وحفظوه في صدورهم، ومنهم كتبة الوحي الَّذين كتبوه ودوَّنوه في العسب واللحاف والرقاع وغير ذلك، ومن هنا ظهر من الصحابة من هم مهرة في الحفظ وطرائق الأداء ومن هؤلاء المهرة : **عبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو الدرداء.**[15]

فابن مسعود هو أحد كبار الصحابة وأعلام رواة القرآن وتجويده وتحقيقه وترتيله، يقول : "والله لقد أخذت من فيّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعة وسبعين سورة."[16]

وأصبحت هذه الكيفية في حفظ كتاب الله عزَّ وجل قاعدة متبعة بالنسبة لطالب القرآن، وذلك أن يتلقَّاه من أفواه المشايخ الضابطين المتقنين، وأن لا يعتدَّ أبدا بالأخذ من المصاحف المكتوبة دون معلِّم لما قد يقع في ذلك من تصحيف يتغير به وجه الكلام ، وهم يقولون : لا تأخذوا القرآن من مصحفيٍّ ولا العلم من صُحفي .[17]

- **الأداء الصَّوتي للقرآن الكريم :**

بيَّن المولى عز وجل وجه العناية بأداء كتابه الكريم ،حين أمر رسوله أن يرتل القرآن ترتيلا، وترتيل النبي صلى الله عليه وسلم مقصود به طريقة من طرق الأداء والقراءة، ذلك أنَّ التَّرتيل اصطلاحا هو القراءة بتؤدة واطمئنان، وإخراج كل حرف من مخرجه مع إعطائه حقَّه ومستحقَّه ومع تدبُّر المعاني، وقيل هو رعاية مخارج الحروف وحفظ الوقوف، ."[18]

وهو مصطلح مرادف لتجويد القرآن، هذا الأخير يشتمل إلى جانب إعطاء الأصوات حقها على قضايا أخرى منها المد بأنواعه والغنة والسَّكت وما إلى ذلك، مما يعد من قبيل الانقطاع المؤقت لتوالي الأصوات الَّتي تتكون منها الألفاظ، فالمد كالسكون والسكون كالسكوت وانقطاع الكلام، وقل ذلك على الغنة لأنها مد بالنون، وقل ذلك أيضا عن السكت وهكذا، فإذا قرأ القارئ مع الترتيل أتى بكل رتل وآخر وبينهما فترة انقطاع هي إما مدٌّ أو غنةٌ أو سكتٌ، وفي ذلك كمال عناية بأداء الذكر الحكيم .[19]

فالترتيل إنَّما هو التحقيق والتَّبيين والتَّمكين، وقال أبو إسحاق: والتَّبيين لا يتم بأن يُعجِّل في القراءة، وإنما يتم التَّبيين بأن يبيّن جميع الحروف ويوفِّيها حقَّها من الإشباع، وقال الضحاك : انبذه حرفا حرفا ."[20]

بل إن علماء اللغة والقراءات، يجعلون لفظ التلاوة مراتب، يقول الإمام **السيوطي**: " التجويد حلية القراءة، وهو إعطاء الحروف حقوقها وترتيبها وردُّ الحرف إلى مخرجه وأصله، وتلطيف النُّطق به على كمال هيئته من غير إسراف ولا تعسُّف ولا إفراط ولا تكلُّف، وإلى ذلك أشار النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: من أحب أن يقرأ القرآن غضًّا طريًّا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد، يعني ابن مسعود، وكان رضي الله عنه قد أعطي حظًّا عظيما في تجويد القرآن، ولا شك أن الأمة كما هم متعبِّدون بفهم معاني القرآن وإقامة حدوده، هم متعبِّدون بتصحيح ألفاظه وإقامة حروفه."[21]

ومن كمال العناية بالأداء الصَّوتي لكتاب الله عزَّ وجل ضبط العلماء الكيفيات الجائزة لقراءة القرآن الكريم، فيما أسموه التحقيق والحدر وبينهما التدوير، فأما التحقيق فهو إعطاء كل حرف حقه من إشباع المد، وتحقيق الهمزة، وإتمام الحركات، واعتماد الإظهار والتشديدات وبيان الحروف، وتفكيكها وإخراج بعضها عن بعض بالسكت والترتيل والتؤدة وملاحظة الجائز من الوقوف بلا قصر ولا اختلاس ولا إسكان محرك ولا إدغامه، وهو يكون لرياضة الألسن وتقويم الألفاظ ويستحب الأخذ به على المتعلمين من غير أن يتجاوز فيه إلى حد الإفراط بتوليد الحروف من الحركات وتكرير الراءات وتحريك السواكن وتطنين النونات بالمبالغة في الغنات ... .[22] فهذا شرح تفصيلي لما اصطلح عليه علماء التجويد بقراءة التحقيق، وهو يوضح ماهية التحقيق كونه إتيانا بالأصوات اللغوية كوامل دون أن يعتريها ما يغير من خصائصها كالإدغام أو الاختلاس، أو غيرهما من الظواهر الصَّوتية التي تقبلها اللغة العربية ، لذا يوصف التحقيق بأنه أكثر أشكال الأداء الصوتي للقرآن اطمئنانا ،وهو المؤخوذ به عادة في مقام التعليم.

ويضيف السيوطي في وصف كيفيات أخرى للتلاوة، فيقول :" والحدر بفتح الحاء وسكون الدال المهملتين، هو إدراج القراءة وسرعتها وتخفيفها بالقصر والتسكين والاختلاس والبدل والإدغام الكبير، وتخفيف الهمزة، ونحو ذلك مما صححت به الرواية مع مراعاة إقامة الإعراب وتقويم اللَّفظ وتمكين الحروف دون بتر حروف المد واختلاس أكثر الحركات، وذهاب صوت الغنة، والتفريط إلى غاية لا تصح بها القراءة ولا توصف بها التلاوة .... والتدوير وهو التوسُّط بين المقامين بين التحقيق والحدر وهو الَّذي ورد عن أكثر الأئمة من مدَّ المنفصل، ولم يبلغ فيه الإشباع، وهو مذهب سائر القراء، وهو المختار عند أكثر أهل الأداء."[23] فالحدر هو الإسراع في القراءة مع مراعاة الأحكام ، والتدوير مرتبة متوسطة بين الترتيل والحدر.

فهذه الجوانب المشرقة التي نراها في اهتمام علماء القراءات بطرق أداء القرآن الكريم وتجويده، تقف بنا على كمٍّ من المصطلحات الَّتي تحمل في جنباتها آليات التنغيم ودرجاته – باعتباره ظاهرة صوتية- . فالقراءة وفق ضوابط التجويد تعني "الإتيان بالقراءة مجوَّدة الألفاظ بريئة من الرداءة في النطق ومعناه انتهاء الغاية في التصحيح وبلوغ النهاية في التحسين".[24] "وعلى هذا الأساس اهتموا بالوقف، وبيان ما يحسن منه وما يقبح، لأن الوقف استراحة يقوم بها القارئ، فقد يضطر أن يقف لئلا ينقطع نفسه، فما كان منهم إلا أن أشاروا وبيَّنوا أنواع الوقف فصنَّفوا المطولات والمختصرات توضح مواطنه لكيلا يوقف على ما يخل بالمعنى".[25] ولهذا قرَّر الدَّارسون المحدثون أن أنواع الوقف تحتاج إلى دراسة تؤخذ من قراءة القراء المجودين لأن النغمات الَّتي تنشأ عنها متباينة وتؤدي معاني مختلفة لاحظها علماء القراءات.[26]

فهذه المراتب ماهي في حقيقتها إلا أداءات صوتية، يرجى من ورائها كمال تلاوة الذكر الحكيم، وفق ضوابط وقواعد حدَّدها علماء القراءات، وأهل فن التجويد.

وحفاظا على المستوى الصوَّتي من لدن النبي صلى الله عليه وسلم ، ذكرت الدراسات القرآنية أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يعرض على ملك الوحي القرآن في كل عام مرة فلما كان العام الَّذي قبض فيه عرضه عليه مرتين .[27] وحرص الرسول صلى الله عليه وسلم ذاته أن يقرأ على أصحابه حتى يتعلموا أدق دقائق الأداء بما فيها العناصر التطريزية، وبخاصة الوقف، والتنغيم، والنغم وهذا ماسجَّله **أبو الليث السمرقندي** (ت373ه) في سياق حديثه عن الحكمة من قراءة الرسول صلى الله عليه وسلم على أبي بن كعب، وذلك بقوله " وأما الحكمة في أمره تعالى بالقراءة على أبي فهو أن يتعلم: أي ألفاظه وصيغة أدائه ومواضع الوقوف وضبط النغم، فإن نغمات القرآن على أسلوب ألفه الشرع وقدَّره بخلاف ما سواه من النغم المستعملة في غيره ولكل ضرب من النغم أثر مخصوص في النفوس، فكانت القراءة عليه ليعلِّمه لا ليتعلم منه.[28] فالرسول صلى الله عليه وسلم كان يقرأ على الصحابة ليتعلموا منه طريقة الأداء، ومواقع الوقف، وصور النغم والتنغيم.

وهذا ما جعل القرآن الكريم يظل منذ اللحظة الأولى لنزوله يتردد على ألسنة الأجيال وينتقل من الصدور إلى الصدور غضا على نفس هيئته يوم نزل أول مرة، وبذا تتحقق تجليَّات المعجزة القرآنية في خلود النَّص المقدَّس وحماية مبناه ومعناه من التحريف والتغيير، ويكون القرآن بحق مُصدِّقا لما بين يديه من الكتب السابقة ومهيمنا عليها ... وذلك لأن الأداء الصَّوتي الصحيح الدقيق هو الوسيلة الوحيدة المثلى التي تضمن تماما توصيل الفكر بمنتهى الدقة والضبط والإحكام .[29]

من هنا تظهر الصورة الصَّوتية الكاملة لكتاب الله عز وجل ، على أن هذه الصورة ظهر ما يحاول أن يشوبها وذلك عند الأداء القرآني. إن الزَّلل والخطأ الذي ظهر في تلاوة كتاب الله عز وجل، تنبَّه اليه علماء العربية القدامى وجرى اتفاق بين المحدثين على كونه العلة الأساس في الانتقال بالمستوى الصوتي ، إلى مرحلة الدرس والتمحيص .

- **دواعي نشوء الدرس الصوتي ومظاهره :**

حرص العلماء إذن على صيانة القرآن من اللحن وجعلوه نوعين أخفاهما وأصعبهما ما تعلق بالأداء الصوتي، وسموه باللحن الخفي، ذلك أن المميز في إنجاز هؤلاء، أنهم قسَّموا اللحن إلى جلي وخفي،" فالجلي خطأ يطرأ على الألفاظ، فيُخل بعرف القراءة، سواء أخلَّ بالمعنى أم لا كتغيير حرف بحرف أو حركة بحركة، وسمي جليا أي ظاهرا لاشتراك القُراء وغيرهم في معرفته، والخفي هو خطأ يطرأ على الألفاظ فيخل بالحرف دون المعنى، كترك الغنة، وقصر الممدود ... وسمي خفيا لاختصاص أهل هذا الفن بمعرفته."[30]

يقول **أبو العطار الهمذاني**" وأما اللحن الخفي فهو الَّذي لا يقف على حقيقته إلا نحارير القراء ومشاهير العلماء، وهو على ضربين : أحدهما لا تعرف كيفيته ولا تدرك حقيقته إلا بالمشافهة وبالأخذ من أفواه أولي الضبط والدراية، وذلك نحو مقادير المدات، وحدود الممالات والملطفات والمشبعات والمختلسات، والفرق بين النفي والإثبات، والخبر والاستفهام، والإظهار والإدغام، والحذف والإتمام، والروم والإشمام، إلى ما سوى ذلك من الأسرار الَّتي لا تقيد بالخط، واللطائف التي لا تؤخذ إلا من أهل الإتقان والضبط".[31] فالقارئ الَّذي ليس له القدرة على التمييز بين الأساليب والأبواب يقع في اللحن الخفي، إذ التمييز بين هذه الأبواب والأساليب ضروري لتحقيق كمال الترتيل.

فاللحن الخفي في حقيقته إذن، ما هو إلا خطأ في الأداء الصوتي، وقد عُدَّ العلة الأساس لنشوء الدرس الصوتي يشركه في ذلك أسباب أخرى من ذلك، التعدد اللهجي، وكون قراء الذكر الحكيم ينتمون إلى قبائل عدة فيهم القرشي وغيره، وكان الناس على اختلاف قبائلهم ولهجاتهم، في سعة من أمرهم في قراءة القرآن، كل يقرأ بلحن قومه[32]، حتّى إذا آنس أحدهم اختلافا في قراءة سمعها من إنسان عما أقرأه الرسول صلى الله عليه وسلم، هرع إليه شاكيا، فسمع الرسول من كل قراءته، فأقره عليها قائلا : (هكذا أنزلت)[33].

فإقرار النبي صلى الله عليه وسلم، هو نوع من السِّعة على أمة تتنوع لغتها تبعا لتنوع بيئاتها وتوسُّع جغرافيتها .

فمن ذلك اختلافهم في قوله تعالى ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيم﴾[34].

إذ قرئت لفظة (الصراط) بالسين، والصاد، والزاي، والإشمام، فقد قرأ **ابن كثير في رواية القواس** وجماعة من العلماء (السِّراط) بالسين، وهذا أصل اللفظة، وقرأ في **رواية البزّي** (الصراط) بالصاد في كل القرآن، وروى **الأصمعي عن أبي عمرو** أنه قرأ (الزِّراط) بالزاي خالصة، وقرأ باقي القراء السبع (الصراط) بالصاد، غير أن **حمزة** يشم الصاد زايا، فيلفظ بها بين الصاد والزاي، ولا يضبطها الكتاب فينطق كظاء العوام .[35]

والتفسير الصَّوتي لهذا الاختلاف في القراءة أورده الكسائي بقوله " السين في (الصِّراط) أثير في كلام العرب، ولكن أقرأ بالصاد أتبع الكتاب، والكتاب بالصاد و السين الأصل، وإنَّما كتبت بالصاد ليقرّبوها من الطاء لأن الطاء لها تصعُّد في الحنك، وهي مطبقة والسين مهموسة وهي من حروف الصَّفير، فثقُل عليهم أن يعمل اللسان منخفضا ومستعليا في كلمة واحدة، فقلبوا السين إلى الصاد لأنها مؤاخية للطاء في الإطباق ومناسبة للسين في الصفير، ليعمل اللسان فيهما متصعدًا في الحنك عملا واحدا."[36]

ولذا فقد أذن الله تعالى، أن يقرأ أفراد كل قبيلة كما اعتادت ألسنتهم، فبنو تميم يهمزون ، والقرشيون لا يهمزون [37]، وأهل الحجاز يفتحون أول المضارع في مثل ((نستعين)) وبعض القبائل يكسره ، وهكذا في الصور المختلفة حسب اختلاف اللهجات.

بل إن أعضاء النطق تختلف في بنيتها واستعدادها ومنهج تطورها، تبعا لتنوع الخواص الطبيعية المزوَّد بها كل شعب من الشعوب المختلفة والتي تنتقل عن طريق الوراثة من السلف إلى الخلف. ومن سنة الله – عز وجل أنه لم يرسل رسولا إلا بلسان قومه، قال تعالى﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيّنَ لَهُم فَيُضِلُّ مَنْ يَشَاء وَيَهْدِي مَنْ يَشَاء وَهُو العَزِيزُ الحَكِيم ﴾[38]، وأن العرب كانوا مختلفي اللهجات، متعددي اللغات، متنوعي الألسن، ومن أجل ذلك أنزل الله تعالى كتابه على لهجات العرب ليتمكنوا من قراءته وينتفعوا بما فيه من أحكام وشرائع، إذ لو أنزله – تعالى – بلهجة واحدة - ....لحال ذلك دون قراءته، والانتفاع بهدايته، لأن الإنسان يتعذَّر عليه أن يتحول من لهجته الَّتي درج عليها ومرَّن لسانه على التخاطب بها منذ نعومة أظفاره.

" فلو فرض الله تعالى على هؤلاء جميعا، أن يقرأوا كلمات القرآن كافة بصورة واحدة لايعدونها، لكان تكليفا بما لا يطاق ولعجز كثير منهم أن يتحوَّل من لهجته الَّتي نشأ عليها إلى لهجة أخرى."[39]

على أن هذا التعدُّد والاختلاف في قراءة كتاب الله عزَّو جل استجوب أن يكون له ضوابط ، وقواعد بحيث لا يلتبس بالخطأ واللحن، ومن هنا بدأ النَّظر في كتاب الله عزَّ وجل يتَّخذ شكلا ممنهجا ، وفق علوم ومعارف ودروس كان من بينها الدَّرس الصَّوتي .

- **الدِّراسة الصَّوتية للقرآن الكريم :**

لا خلاف حول كون العلوم اللغوية أولى نتاج النَّهضة الفكرية العربية، كما يعدُّ القرآن الكريم سر تفتق القريحة العربية. "فقد انشعبت من ألفاظ القرآن الكريم، علم اللغة، ومن إعراب ألفاظه، علم النحو، ومن وجوه إعرابه، علم القراءات، ومن كيفية التَّصويت بحروفه، علم مخارج الحروف، إذ أوَّل أجزاء المعاني التي منها يلتئم النُّطق هو الصوت."[40]

والدراسة الصَّوتية مع كتاب الله عز وجل ستأخذ مستويين اثنين، دراسة الأصوات العربية من ناحية المخارج والصِّفات، ثم استثمارٌ لهذه المعطيات في دراسة الصَّوت داخل التركيب، وليلتفت اللسانيون العرب القدامى بذلك إلى كثير من الظواهر الصوتية الّتي تعتري الأبنية في التشكيل كالإدغام، والإبدال والإعلال وغيرها، مما لاحظوه أثناء إخضاع اللسان العربي للبحث والدرس. وقد أيقن هؤلاء العلماء أن هذه الظواهر الصوتية هي المسئولة عن إعادة الاستقرار والتوافق إلى أصوات هذه الأبنية الّتي عصفت بها تقلبات السياق المختلفة[41].

يقول **ابن الجزري (ت833ه)** " فإذا أحكم القارئ النُّطق بكل صوت على حدته موفٍّ حقه فليعمل نفسه بإحكامه حالة التركيب، لأنه ينشأ عن التركيب ما لم يكن حالة الإفراد، وذلك ظاهر، فكم ممَّن يُحسن الأصوات مفردة ولا يُحسنها مركبة بحسب ما يجاورها من مجانس ومقارب وقوي وضعيف ومفخم ومرقق، فيجذب القوي الضعيف، ويغلب المفخم المرقق، فيصعب على اللسان النطق بذلك على حقه إلا بالرياضة الشديدة حالة التركيب، فمن أحكم صحة اللفظ حالة التركيب حصَّل حقيقة التجويد بالإتقان والتدريب[42].

إن الجانب الأدائي للغة هو الفيصل في ضبط الصياغة العربية، "فالنظام الصوتي للغة يقرر مثلا أن الدَّال مجهورة وأن التاء مهموسة، ويُصرُّ النظام على اطِّراد هذه القاعدة وإطلاقها، ولكن الكلام وهو التطبيق العملي لنظام اللغة قد يشتمل على دال ساكنة متبوعة بتاء متحركة، وهنا نجد أن تجاور الحرفين على هذا النحو، يتسبب في صعوبة عضوية تتحدَّى محاولة الحفاظ على ما قرَّره النظام، كما يتسبَّب التقاء المتقاربين دائما في احتمال اللبس لو حاولنا في نطقهما عبثا أن نرضي مطالب النظام ،لأن جهر الدال الساكنة المتبوعة بتاء متحركة أمر ثقيل التحقيق في النطق، وهنا تظهر مشكلة من مشاكل التطبيق يحلها السياق بظاهرة المماثلة التَّامة فتكون الدال والتاء في النطق كالتاء المشددة تماما(قَعَدْتُ-قَعَتُّ)"[43].

فالبعد عن الثقل وتوخي الانسجام هو مطلب العربية في تأليف كلامها، وما الإدغام أو المماثلة التَّامة إلا واحدة من الظواهر الّتي يدعو إليها تحقيق الانسجام الصوتي والتخلُّص من الثِّقل النَّاتج عن تجاور الأصوات المتحدة أو المتقاربة في المخرج "فالتاء والدال مثلا كل واحدة منها تدغم في صاحبتها حتّى تصير التاء دالا والدال تاء، لأنهما من موضع واحد، وهما شديدتان ليس بينهما شيء إلا الجهر والهمس، وذلك قولك : انعدلاما، وانقتلك، فتدغم، ولو بيَّنت فقلت : اضبط دلاما، واضبط تلك، وانعت دلاما لجاز، وهو يثقل التكلُّم به لشدتهن ولزم اللسان موضعهن، لا يتجافى عنه."[44]

ومنه في القرآن الكريم إدغام التاء في الطاء، في ﴿ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ ﴾[45]،﴿ وَدَّتْ طَائِفَةٌ ﴾[46] ، ﴿ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ﴾ لأن التاء حرف ضعيف للهمس الذي فيه والطاء حرف قوي للإطباق والاستعلاء والشدة اللواتي فيها، فهو أقوى من التاء كثيرا، فإذا أدغمت التاء نقلتها من ضعف إلى قوة مكررة.

ولعلّة الثقل نفسها لجأت العربية إلى ما يعرف في الدرس الصوتي الحديث بظاهرة المخالفة أو ما عبّر عنه **سيبويه (ت180ه)**بكراهية التضعيف، يقول **المبرّد (ت286ه)**: "واعلم أنّ التضعيف مستثقل وأنّ رفع اللسان عنه مرّة واحدة ثمّ العودة إليه ليس كرفع اللسان عنه وعن الحرف الذي من مخرجه ولا فصل بينهما، فلذلك وجب"[47]. وعلى هذا الأساس "تبدل الياء مكان أحد الحرفين إذا ضوعفا في مثل قولك "دينار" و"قيراط" فإنّما الأصل تثقيل النون والراء، ألا ترى أنّهما إذا افترقا ظهرا تقول دنانير وقراريط."[48]

ومنه في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ ﴾، [49] "ففاؤه بدل من نون، يدل على ذلك الجمع قالوا دنانير وأصله دنَّار أبدل من أول المثلين".[50]

ومن أشكال المخالفة ما يعرف بتخفيف الهمز حيث حاولت بعض القبائل العربية القديمة التخلص من الهمزة وعلى الأخص قبائل الحجاز، كما تخلَّصت منها معظم اللهجات العربية الحديثة، وصوت الهمز عسير النطق لأنّه يتمّ بانحباس الهواء خلف الوترين الصوتيين، ثمّ انفراج هذين الوترين الصوتيين فجأة، وهذه العملية تحتاج إلى جهد عضلي كبير.[51] فكان في التخلص منه جنوح نحو السهولة والتيسير.

ومن طرائق التخلُّص من الهمزة إبدالها بأصوات المدِّ واللِّين ، على نحو ما يحدث حين اجتماع الهمزتين ، في مثل قوله تعالى ﴿أَئِمَّةَ الكُفْرِ ﴾[52] قرأ **أهل الكوفة وابن عامر** بهمزتين، الأولى ألف الجمع والثانية أصلية، والباقون كرهوا الجمع بين الهمزتين فليّنوا الثانية فصارت لفظة كياء (أئمة الكفر)[53].

ومنه كذلك الإبدال في قوله تعالى ﴿ فَلْيُؤَدِّ الَّذي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ ﴾، [54] قرأه **حمزة وعاصم في رواية أبي بكر** بضم الهمزة وهو خطأ... والباقون يكرهون اجتماع همزتين فيقلبون الثانية واوا فيبدلون أوتمن."[55] فالتقاء الهمزتين في كلمة يوجب في قراءات معيّنة قلب الثانية حرف لين؛ "وخُصّت الثانية بالإبدال، لأنّ الأولى يُلفظ بها ولا مانع لها، والثانية تمتنع مع التحقيق من أجل الأولى التي قد تثبتت في اللفظ.[56]" فالثانية إنما تقع للتكرير، وبها يقع الاستثقال.[57]

وابتعادا عن الثِّقل وبحثا عن الخفة والسهولة، نظر علماء العربية إلى نسيج الكلمة العربية من حيث تأليفها، ووقفوا على خاصية مهمة للُّغة العربية كونها لغة موسيقية يراعى فيها نوع من التناغم والتوازن في بناءها وذلك وفق أسس وقواعد ضبطها العلماء.

- **البنية الموسيقيَّة للكلمة القرآنية :**

تتميز اللفظة العربية بجودة في الصياغة جاءت من نسيجها الصَّوتي المبنيّ على الجمع بين الأصوات المتباعدة المخارج، فذكر العلماء أن قُرب المخارج مدعاة للنُّفرة والثقل في الصِّيغة، وقد فصَّل **ابن دريد (ت321ه)** في ذلك تفصيلا دقيق، فقال "اعلم أن الحروف إذا تقاربت مخارجها كانت أثقل على اللسان منها إذا تباعدت، لأنك إذا استعملت اللسان في

حروف الحلق دون حروف الفم، ودون حروف الذلاقة كلَّفته جرسا واحدا أو حركات مختلفة؛ ألا ترى أنك لو ألفت بين الهمزة والهاء والحاء، فأمكن لوجدت الهمزة تتحول هاءا في بعض اللغات لقربها منها؛ نحو قولهم في: (آم والله)، هم والله وكما قالوا في (أراق) هراق، ولوجدت الحاء في بعض الألسنة تتحول هاءا...وإذا تباعدت مخارج الحروف حسُن وجه التَّأليف...واعلم أنه لا يكاد يجيء في الكلام ثلاثة أحرف من جنس واحد في كلمة واحدة؛ لصعوبة ذلك عليهم؛ وأصعبها حروف الحلق، فأما حرفان فقد اجتمعا في كلمة مثل أخ."[58]

وفي كتاب الله عزَّ وجل يندر تلاقي الأصوات المتقاربة المخارج فأصوات الحلق مثلا لا تكاد تلتقي في سورة آ ل عمران إلا في المواضع التالية وبشروط صوتية:

فبين (الهمزة- الهاء- العين- الحاء –الخاء –الغين) ،[59] لم يتم الالتقاء بين هذه الأصوات، وإن تم فإنه لا يكون التقاءا مباشرا

الهمزة مع الهمزة: ﴿ أَأَقْرَرْتُمْ﴾[60] ، ﴿ أُؤَنَبِّئُكُمْ﴾[61] ،﴿ أَأَسْلَمْتُمْ ﴾[62] ،وإن كان التقاؤهما غير مباشر، حيث فصل صائت الفتح القصير بينهما .

وتجاورت **الهمزة مع الهاء** تجاورا غير مباشر أي بوجود فاصل، عادة ما يكون صائتا ، وذلك في نحو قوله تعالى﴿ جَزَاؤُهُمْ ﴾[63] ،﴿ جَاءَهُمُ ﴾[64] .

أما في قوله تعالى ﴿ تَسُؤْهُمْ ﴾[65]؛ فالتجاور مباشر بين الهمزة والهاء على الرغم من اتحاد مخرجيهما ،وهذه هي الحالة التي تتصل فيها الكلمة بضمير الغائب ،فعلَّة هذا الاتصال نحوية دلالية .

واتصلت **الهمزة بالخاء** في مثل قوله تعالى: ﴿الآخِرَةِ﴾،﴿أُخْرَاكُمْ﴾،﴿أَخَذْتُمْ ﴾،﴿ لإِخْوَانِهِمْ﴾[66]؛ وكله إنما تمَّ بوجود فاصل.

هذه هي الأصوات التي وردت مجاورة للهمزة، أما باقي أصوات الحلق، فلا تتبع الهمزة لا بتقديم ولا بتأخير."فحرف (أ) لا تتبعه الأحرف (أ،ع،غ) ،ولا تسبقه الأحرف (أ،ح،خ،ع،غ) وفي هذا ينفرد حرف (أ) بأنه الوحيد في اللغة العربية الذي لا يتكرر في موقعين متتالين في الجذر الواحد باستثناء الجذر الثنائي (أأ) على حين تتكرر باقي الحروف، وأيضا حرف (أ) لا يتبع أو يسبق حرفي (ع،غ).

الهاء : صوت الهاء يتكرر مع نفسه في قوله تعالى ﴿ أَفْوَاهِهِمْ ﴾[67] ،﴿ وُجُوهُهُمْ ﴾[68]

واتصلت **الهاء بالعين** ،اتصالا غير مباشر في قوله تعالى ﴿ بِعَهْدِ ﴾[69] ،أما بقية الأصوات الحلقية فلم يرد اتصالها مع غيرها من الأصوات ،ممَّن تدانيها أو تشترك معها في المخرج، سواء أكان الاتصال مباشرا أم غير مباشر .

فمقياس القرب أو البعد هو المعيار الأساس في الحكم على جودة الصياغة. فعلى أساس التجاور رفض الخليل بعض التراكيب، لأنها مخالفة للطبيعة الموسيقية للغة العربية، ولذلك لم ترد في كلام العرب "فإذا ورد عليك شيء من ذلك فانظر ما هو تأليف العرب، وما ليس تأليفهم نحو قعثج، ونعثج، ودعثج لا ينسب إلى العربية، ولو جاء عن ثقة لم ينكر، ولم نسمع به، ولكن ألَّفناه ليعرف صحيح بناء كلام العرب من الدخيل."[70]

لقد اختار الذوق العربي منذ الزمن الأبعد أن يجانب المنطق في بعض اللغة ويميل إلى الموسيقا في اللفظ في كل لفظ تكسبه تلك الموسيقا خفة وجمالا. "[71] "ثم إن الذين دوَّنوا اللغة لم يجمعوها إلا بعدما انطبعت الألسنة على لغة القرآن وجرت في نهجه، وبعد تنقل هذه اللغة في أدوار التهذيب حتّى بلغت نهايتها من الكمال، فمن هاهنا تألف ذوق عام في تقدير لهجات القبائل المختلفة والتمييز بينها خفة وثقلا"[72].

وبحثا عن هذه الموسيقية في الكلمة العربية، حاول علماء العربية ضبط الأبنية العربية، وترتيبها وفق معيار جودتها، فقد قدَّم السَّبكي تقسيما للتآليف التي تأتي بها الكلمة العربية، وقد قسَّم المخارج إلى ثلاثة مجموعات، العليا، الوسطى، والدنيا، وجاء باثني عشرة تركيبا على النحو التَّالي:

الأول- الانحدار من المخرج الأعلى إلى الأوسط إلى الأدنى ، نحو(ع د ب)

الثاني- الانتقال من الأعلى إلى الأدنى إلى الأوسط، نحو (ع ر د).

الثالث- من الأعلى إلى الأدنى إلى الأعلى، نحو(ع م ه).

الرابع – من الأعلى إلى الأوسط إلى الأعلى ، نحو (ع ل ن).

الخامس-من الأدنى إلى الأوسط إلى الأعلى ، نحو (ب د ع) .

السادس-من الأدنى إلى الأعلى إلى الأوسط ، نحو(ب ع د).

السابع – من الأدنى إلى الأعلى إلى الأدنى ،نحو(ف ع م).

الثَّامن – من الأدنى إلى الأوسط إلى الأدنى ، نحو (ف د م).

التاسع – من الأوسط إلى الأعلى إلى الأدنى ، نحو(د ع م).

العاشر- من الأوسط إلى الأدنى إلى الأعلى ، نحو (د م ع).

الحادي عشر – من الأوسط إلى الأعلى إلى الأوسط، نحو (ن ع ل).

الثاني عشر – من الأوسط إلى الأدنى إلى الأوسط ، نحو(ن م ل) .[73]

واعتمادا على هذه الاعتبارات الذوقية أفاد دارسو الإعجاز من الدراسة الصوتية عند اللغويين، ووجهوا خطاهم نحو تأليف حروف الكلمة بحسب المخارج الصوتية وماله من دور في حُسن التلفظ وفصاحته أو سُوئه وعدم فصاحته.[74]

قال الإمام **أبو الحسن الرماني(ت386م)**: "مخارج الأصوات مختلفة، منها ما هو من أقصى الحلق ومنها ما هو في الوسائط بين ذلك، والسَّبب في التلاؤم، تعديل الأصوات في التأليف، فكلّما كان أعدل كان أشدّ تلاؤما وأمّا التنافر فالسبب فيه ما ذكره الخليل من البعد الشديد أو القرب الشديد، فإذا قرب القرب الشديد كان بمنزلة المشي المقيد لأنّه بمنزلة رفع

اللسان وردّه إلى مكانه، و كلاهما صعب على اللسان، والسهولة من ذلك في الاعتدال ولذلك وقع في الكلام الإدغام والإبدال."[75] وما الانصراف عما سمّي بالألفاظ المهملة إلاّ نتيجة لكونها مؤلفة من أصوات شديدة القرب في المخارج.[76]

والذكر الحكيم بعد كل هذا يُعد أعلى أنموذج يحاكى في صياغة اللفظة، فبين أصواته حسن تلاؤم مع بعضها البعض، إذ هو نزل بأفصح اللُّغات وأصحها وأبلغها، وأوضحها، وأثبتها، وأمتنها.

على أن الجانب الموسيقي للَّفظة القرآنية سيساهم في خدمة الدلالة وتوجيهها، فيما اصطلح عليه الباحثون بالدلالة الصَّوتية أو الإيحاء الصَّوتي .

- **الإيحاء الصَّوتي في القرآن الكريم :**

إن "اللغة الغنيَّة بالموسيقى يفوق سحرها وتأثيرها سحر الموسيقى وتأثيرها، لأن اللغة معاني مؤثرة، فإذا انتظمت بطريقة تنغيمية أو موسيقية صار التأثير مضاعفا لوجود عاملين مؤثرين: المعاني أولا والتنغيم ثانيا، والكلام الَّذي يتوفر فيه الإيقاع والتنغيم يبث في السامع انتباها عجيبا لما فيه من توقُّع لمقاطع تنسجم مع ما سبق سماعه، فتُحفِّز النفس وتهيأ لاستقبال المعاني والاستجابة لها أيًّا كانت تلك المعاني."[77]

لذا كان لزاما التنبه إلى جانب المعنى وعلاقته بالصَّوت والأداء في كتاب الله عز وجل، وهو جانب لم يخف على علماء العربية، بل أشاروا إلى ضرورة أن يراعى في الأداء المعاني والدلالات، يقول **الزركشي"** فحق على كل امرئ مسلم أن يُرتِّله، وكمال ترتيله تفخيم ألفاظه، والإبانة عن حروفه والإفصاح لجميعه ... فمن أراد أن يقرأ القرآن بكمال الترتيل فليقرأه على منازله، فإن كان يقرأ تهديدا لفظ به لفظ المتهدد، وإن كان يقرأ لفظ تعظيم لفظ به على التعظيم ... فإذا مرَّ به آية رحمة وقف عندها وفرح بما وعده الله تعالى منه، واستبشر إلى ذلك وسأل الله تعالى أن يعيذه من النار، وإن هو مرَّ بآية فيها نداء للذين آمنوا، فقال : (يا أيها الَّذين آمنوا) وقف عندها، ... وإن كان ما يقرأه من الآي مما أمر الله به أو نهى عنه أضمر قبول الأمر والائتمار، والانتهاء عن المنهي والاجتناب له، فإن كان ما يقرأه من ذلك وعيد أوعد الله به المؤمنين فلينظر إلى قلبه، فإن جنح إلى الرجاء فزَّعه بالخوف، وإن جنح إلى الخوف فسَّح له في الرجاء، حتى يكون خوفه ورجاؤه معتدلين، فإن ذلك كمال الإيمان ... وإذا كان موعظة اتعظ بها، فإنه إذا فعل هذا فقد نال كمال الترتيل."[78]

ومن هذا القبيل في القرآن الكريم تلك الجمل التي تعتبر مفتريات، يقول النووي، ومن الآداب إذا قرئ نحو﴿ وَقَالَت اليَهُودُ عُزَيْرُ بْنُ الله ﴾،[79] و﴿ وَقَالَتْ اليَهُودُ يَدُ اللَّه مَغْلُولَةٌ ﴾،[80] أن يخفض بها صوته وكذا كان النخعي يفعل.[81]

"إن هذه الآيات فيها جرأة على الله وتقوُّل عليه وكفر وتحد أو افتراء عليه، لذلك فهي تؤدى على مستوى طبقات الصوت بصوت خفيض تسفيها لقائلها وتعظيما لله واستحياءا منه. وهذا مانبَّه عليه **الدركزلي** وهو يحدد النغمات التي ينبغي أن يقرأ بها القرآن، حيث اعتبر أن المفتريات ينبغي أن تقرأ بالإخفاء والترقيق، وهي من الملامح الموازية للخفض[82]. حيث قال: "قال بعض المحققين: ينبغي أن يقرأ القرآن على سبع نغمات: فما جاء من أسمائه تعالى وصفاته فبالتعظيم والتوقير، وما جاء من المفتريات عليه فبالإخفاء والترقيق، وما جاء في ردها فبالإعلان والتفخيم، وما جاء من ذكر الجنة فبالشوق والطرب،

وما جاء من ذكر النار والعذاب فبالخوف والرهبة، وما جاء من ذكر الأوامر فبالطاعة والرغبة، وما جاء من ذكر المناهي فبالإبانة والرهبة.[83]

فكمال ترتيل كتاب الله عز وجل، وإن ارتبط بأدائه وفق ضوابط العربية وقوانينها، فإنه لا يبلغه منتهاه، إلا إذا روعي في قراءته المقام والسياق، وليأتي الأداء مُحمَّلا بما يدل على معاني كتاب الله عز وجل وأغراضه.

"فالقارئ هو الَّذي تكون تلاوته على معاني الكلام وشهادة وصف المتكلم، من الوعد بالتشويق والوعيد بالتخويف، والإنذار بالتشديد، وهذا القارئ أحسن الناس صوتا بالقرآن، فإذا كان التنغيم الباكي مقبولا مثلا في آيات الاستغفار والتوبة، فلا بد له من أن يختلف عن تنغيم الآيات الَّتي تحضُّ على القتال أي يجب أن يوائم التنغيم المعنى ويظهره، ليجعل المقروء مستقرا في ذهن السامع وقلبه. فاللِّين غير الشدة والأمر والنهي غير الدعاء والالتماس، والخبر غير الاستفهام والوعد غير الوعيد".[84]

بل إن بعض الآيات القرآنية لا يمكن الوقوف على مدلولها الصَّحيح إلا بتتبع أدائها الصَّوتي الَّذي يوضِّح الدَّلالة أكثر من النظر إليها في صورتها الخطيَّة ، فمن ذلك قوله تعالى ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الإنْسَان حِينٌ من الدَّهر لَمْ يكُن شَيْئًا مَذْكُورا ﴾،[85] " إذ تبدو الآية بهذا القدر استفهامية – للوهلة الأولى – بناء على القرينة اللفظية، وهي أداة الاستفهام، إذا نظرنا إليها مكتوبة، فإذا عرضناها على أسماعنا من أفواه القراء، أو نظرنا إليها في سياق المعنى القرآني، لم تكن الجملة استفهامية، والآية بصياغتها من أساليب التحقيق والتأكيد، ومن ثمة جعل أكثر النحاة والمفسّرين (هل) بمعنى (قد)، والقرينة التي كانت لها الغلبة على (هل) هو المعنى والتنغيم المعبّر عنه، وبهذا تجرّدت الجملة من معنى الاستفهام مع توافر قرينة الاستفهام اللفظية المعروفة."[86] "فالاستفهام ينبغي أن يُفهم من التراكيب وما يُصاحبها من قرائن معنوية وأدائية، لا من الأداة وحدها."[87]

ثم إن المحدثين اليوم يتحدثون عن النغمات والإيقاع وضرورة مراعاتهما في تلاوة كلام الله عز وجل، "والايقاع في النَّص القرآني يقع من اندماج عنصرين من نغمة خاصة تناسب الفكرة، وتقوم القافية فيها بدور المفتاح ومن لحن ينتظم النغمات جميعا على اختلاف درجاتها وفي شكل منسجم ومتناسب يُخلِّف في روح المتلقي شعورا ما .فبالنغمات يوقع القرآن إيقاعات شتى على أوتار النفس وباللحن المتساوق يترك وحدة الأثر، والعلاقة بين النغمات الَّتي تصنع اللحن علاقة ذات أساليب شتى، فقد تقوم على الشوق أو الترقب، أو على الترجيع أو على سواها من قواعد التشكل حتى يثير القرآن في أنفسنا ألوانا من الانفعالات تنصهر أخيرا في بوتقة الإحساس النهائي حين تتجه إلى غايتها المنشودة".[88]

"إن للكلام الشفاهي آليات يعمل من خلالها، أوضحها حضور المتكلم وحضور السامع معا، كما أن للكلمة المنطوقة قوة خاصة، ليست للكلمة المكتوبة تتجلى في استحواذها على إحساس السامع، وإثارتها دلالات خاصة، ليست الدلالات المعهودة من مدلولاتها، بل من قوة الصوت، وهو يعبر ويرمز ويشير".[89]

ففي قوله تعالى: ﴿أَلَم تَرَ أنَّ الله يُزْجِي سَحَابًا ﴾ ،[90] كلمة (يُزجي) بجرسها الموسيقي ترسم حركة السحاب البطيئة في السماء، وما فيها من امتدادات رخية متطاولة، بخلاف ما لو استعمل كلمة (دفع أو ساق). فكلمة (يُزجي) تبدأ بالياء، وتختم بالياء أيضاً، والياء حرف ليّن رخو.

ولكن الزاي حرف من حروف الصفير والجهر، والجيم من حروف الشدَّة والجهر، غير أن تركيب الجيم في الكلمة بين الزاي والياء وحركة الكسر عليها خفَّفت من شدّتها وجعلتها متناسقة مع ما قبلها وما بعدها؛ فهذه الكلمة بتوزيع حروفها من حيث المخارج والصفات، وتنويع حركاتها وتأليفها من مقطعين "يُز" و"جي" جعل ايقاعها رخياً ممتداً، كرخاوة حركة السحاب، وامتداده في السماء.[91]

"إن للكلمة المنطوقة وسط كل العوالم الرائعة التي تتيحها الكتابة لا يزال لها حضور وحياة، وذلك لأن كل الكتب المكتوبة مضطرة بطريقة ما مباشرة أو غير مباشرة، إلى الارتباط بعالم الصوت، الموطن الطبيعي للغة، كي تعطي معانيها. وقراءة النص تعني تحويله إلى صوت ... فالكتابة لا يمكن أبدا أن تستغني عن الشفاهية ".[92] وبهذا يحصل التعاضد بين الطبيعة الصوتية للنص القرآني، وأدائه أداءا مرتلا حسنا و الَّذي كان مطلبا قرآنيا أيضا.

من هنا كان لزاما التركيز على حسن الأداء وجعله جزءا من دراسة الأصوات وطرق أدائها، **فابراهيم أنيس** يرى "أنَّ لطول الصوت أهمية خاصة في النطق باللغة نطقا صحيحا، فالإسراع بالنطق أو الإبطاء به يترك في لهجة المتكلم أثرا أجنبيا عن اللغة ينفر منه أبناؤها".[93]

ويرى **أبو حاتم الرازي** أن تطويل الصوت – أي مدَّه- يدل على معنى النداء ،وعلى معنى الشكاية، فربط مد الصوت بالمعنى، وهذا أمر لا يمكن إدراكه إلا بالكلام المنطوق، ويقصر الكلام المكتوب على نقله، ويؤيّد هذا الرأي ما ذكره بعض الباحثين من أن الخطاب المكتوب يعتمد في نقل المعنى على البنية اللغوية، لأنه يفتقر إلى السياقات الوجودية الكاملة العادية الَّتي تحيط بالخطاب الشفاهي، وتساعد على تحديد المعنى فيه، مستقلة في ذلك إلى حد ما عن القواعد النحوية[94].

من هنا لا ينبغي إهمال الشق الأدائي للُّغة، وحين يتعلق الأمر بالذكر الحكيم، سيكون لزاما التَّعامل مع الشِّق الأدائي والصَّوتي منه مع بعناية فائقة ، حتى نحقق الفهم الدَّقيق والسليم لمعانيه واغراضه .

وهكذا فإن البنية الصَّوتية لكتاب الله عز وجل بنية متكاملة، تعكس عناية فائقة بأولى مستويات اللغة - وأعني المستوى الصَّوتي –، إذ تتضافر المعطيات والأحداث المتعلقة بكتاب الله عز وجل لترسم لنا بناءا صوتيا متكاملا، لا يحتاج إلا إلى التنقيب والبحث في مكنوناته واستكشاف أسراره، زيادة في فهم كتاب الله عز وجل، وتبيانا لمظاهر جديدة من مظاهر إعجازه، ووصولا إلى معرفة أفضل بخصائص و مميزات اللغة العربية.

[1] اختلف العلماء في تحديد معنى الأحرف السبعة ، وهل المقصود هو عين العدد أم أنه أسلوب عربي يراد منه التكثير، وقد وصلت أقوال العلماء في معنى الأحرف السبعة إلى ما يفوق خمسة وثلاثين قولا ، ويعلق الأستاذ غانم حمد القدور على تفسير

الأستاذ عبد الصبور شاهين لمعنى الأحرف السبعة بقوله " ويظل معنى الحديث يشير إلى تلك الرخصة التي جاءت تيسيرا وحلًّا لمشكلة واجهت الجماعة المسلمة دون تحديد لأبعاد تلك الرخصة ، ولكنها لا تخرج عن إطار وجوه القراءات المروية." ينظر: القدوري، غانم حمد ، رسم المصحف دراسة لغوية تاريخية ، اللجنة الوطنية لاحتفال بمطلع القرن الخامس عشر هجري ، العراق ، ط1، 1982م/1402هـ،ص144.

[2] سورة الأعراف ، الآية 145

[3] العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري،تحقيق: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار الفكر ،بيروت، لبنان، 1996، ص 422/15.

[4] نفسه ،الصفحة نفسها .

[5] البابيي، أحمد، القضايا التطريزية في القراءات القرآنية، دراسة لسانية في الصواتة الإيقاعية، على الكتب الحديث، إربد، 2012، ص 176،177/1.

[6] سورة الأعلى،الآية 06.

[7] سورة القيامة ، الآيتين (16)،(17).

[8] سورة القيامة ، الآية 18.

[9] سورة القيامة ، الآية 19.

[10] فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ص 43/1.

[11] سورة الجمعة ، الآية 02.

[12] لبيب السعيد،، الجمع الصَّوتي للقرآن الكريم (المصحف بواعثه ومخططاته) ،دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ،ص 39

[13] سورة النساء ، الآية 95.

[14] المطبعي محمد بخيت ، الكلمات الحسان في الحروف السبعة وجمع القرآن، القاهرة ، 1323هـ، ص48.

[15] البيلي أحمد، الاختلاف بين القراءات، دار الجيل، بيروت ،ط1988،1/1408هـ، ص 36.

[16] ينظر:البخاري ، أبي عبد الله محمد بن اسماعيل ، صحيح البخاري ، شركة الشهاب الجزائر ، 1991، ص102/6.
العسكري ، أبي أحمد الحسن بن عبد الله، شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف،تح : عبد العزيز أحمد ، مطبعة

[17] مصطفى البابيي الحلبي وأولاده ن مصر ن ط1، 1383هـ/1963م ،ص10.

[18] ينظر: النشر في القراءات العشر ن ص165،166/1.

[19] ينظر: القضايا التطريزية في اللغة العربية، ص 79/1

[20] ينظر:القيسي، أبو محمد مكي بن أبي طالب حموش ت437هـ، التبصرة في القراءات السبع، تحقيق: محمد غوث الندوي، الدار السلفية، ط2، 1402هـ/1982م، ص63.

[21] السيوطي جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، مطبعة الحجازي، القاهرة، دط ،دت ، ص 120/1 .

[22] ينظر: ابن الجزري ، محمد بن محمد الدمشقي (ت833هـ)، النشر في القراءات العشر، قدَّم له: علي محمد الضباع، خرَّج آياته: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 2002م/1427هـ، ص163/1

[23] الإتقان في علوم القرآن، ص101/1.

[24] النشر في القراءات العشر ، ص167/1 .

[25] رحماني، زهر الدين، دلالة التنغيم في اللغة العربية، ص09، من موقع revue.ummto.dz

[26] ينظر: النشر في القراءات العشر ،ص177/1 وما بعدها .

[27] العسقلاني، ابن حجر، فتح الباري بشر صحيح البخاري، ص822/4.

[28] السمرقندي، أبو الليث نصر بن محمد، بستان العارفين ويليه تنبيه الغافلين، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت لبنان ،ص319.

[29] ينظر: القضايا التطريزية، ص178.

[30] ينظر: محمد الصادق قمحاوي، البرهان في تجويد القرآن، ويليه رسالة في فضائل القرآن، المكتبة الثقافية، بيروت، لبنان، 1407ه/1987م، ص 05.

[31] الهمذاني، التمهيد في علم التجويد، ص 119 نقلا عن : القدوري الحمد القدوري، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، مطبعة الخلود، بغداد، 1986،ط1، ص 567 .

[32] ينظر: ابن زنجلة أبو زرعة، حجة القراءات، تحقيق : سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، ط5، 1418ه/1997م،ص8.

[33] ينظر: البخاري، إسماعيل بن إبراهيم، صحيح البخاري، شركة الشهاب، الجزائر، د.ط، د.ت، ص 100/6.

[34] الآية (06) من سورة الفاتحة .

[35] ينظر : الكشكي، عطية ايو زيد محجوب، قراءات النبي صلى الله عليه وسلم ، دراسة قرآنية حديثية، نشر جامعة الملك سعود، الريا ، 1432ه/2011م، ص12، وينظر: ابن زنجلة ،حجة القراءات ، ص 80.

[36] الكشكي، قراءات النبي صلى الله عليه وسلم ،ص 12،13.

[37] ينظر: محيسن محمد سالم ، المقتبس من اللهجات العربية والقرآنية، دار محيسن، ط1442،6ه/2003م، ص68.

[38] سورة إبراهيم ، الآية 04.

[39] البيلي أحمد ، الاختلاف بين القراءات، دار الجيل ، بيروت ، ط1، 1408ه/1988، ص53.

[40] ينظر: الغزالي، أبو حامد (ت505ه)، جواهر القرآن، تحقيق : محمد رضا رشيد الفياني، دار إحياء العلوم ، بيروت، لبنان ،1986،ص36.

[41] ينظر: بوروية المهدي، ظواهر التشكيل الصوتي عند العرب حتّى أواخر القرن 3ه، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه دولة، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 1423ه/2002م، ص 15.

[42] ينظر: ابن الجزري، النشر في القراءات العشر ، ص 170/1.

[43] ينظر: تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، 1421 ه/1986م، ص 262.

[44] ينظر: سيبويه أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (ت180ه) الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط1،د.ت،ص461/4.

[45] سورة آل عمران ، الآية 72

[46] سورة آل عمران ، الآية

[47] المبرد، أبي العباس محمد بن يزيد (ت: 285ه) المقتضب، تحقيق: محمد عبد الخالق عظيمة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1926م، ص 272/1.

[48] نفسه، ص102/1.

[49] سورة آل عمران ، الآية 75.

[50] ينظر: البحر المحيط ،ص498/2.

[51] ينظر:رمضان عبد التواب، التطور اللغوي مظاهره علله وقوانينه، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1412ه/1990م،ص 76

[52] سورة التوبة، الآية 12.

[53] ابن خالويه، إعراب القراءات، ص 235/1.

[54] سورة البقرة، الآية 283.

[55] ينظر: البحر المحيط ، ص372/2

[56] إعراب القراءات، ص 105/1.

[57] ينظر: الكشف، ص 1/ 75.

[58] ينظر: ابن دريد أبي بكر محمد بن الحسين الأزدي البصري (ت: 321هـ) ، جمهرة اللغة، دار صادر ، بيروت، دت، ص9/1.

[59] تم الجمع بين الأصوات الحنجرية والأصوات الحلقية والأصوات الأقصى حنكية من منطلق التقارب الشديد في مخرجها واشتراكها في الحيز.

[60] سورة آل عمران ، من الآية81

[61] سورة آل عمران ، من الآية15

[62] سورة آل عمران ، من الآية20

[63] سورة آل عمران ، من الآية87

[64] سورة آل عمران ، من الآية105

[65] سورة آل عمران ، من الآية120.

[66] سورة آل عمران الآيتين(85،77)

[67] سورة آل عمران ، من الآية 153

[68] سورة آل عمران ، من الآية81

[69] سورة آل عمران ، من الآية168

[70] الفاراهيدي، الخليل بن أحمد(ت175هـ)،العين،تحقيق:عبد الحميد هنداوي،دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان،2003،ص6/1.

[71] ينظر: عمر فروخ ، عبقرية اللغة العربية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1401هـ/1981م، ص 108.

[72] - مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العربية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1421هـ/2000م، ص81/1.

[73] السيوطي، جلال الدين، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، شرح وتعليق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، محمد جاد المولى بك ، علي محمد البجاوي ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، ط1، 1425هـ/2004م،ص162/1.

[74] عبد القادر سلامي، الفصاحة بين اللفظ والمعنى، مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق،صفر،1425هـ/ أبريل 2005 ،مج 79،ص 2/ 266.

[75] ينظر: الرماني أبو الحسن علي بن عيسى (ت 386هـ)، النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، الرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني، تحقيق وتعليق: محمد زغلول سلام ، محمد خلف الله أحمد ، دار المعارف ، مصر ، ط3 ،ص26.

[76] ينظر:الخفاجي محمد بن سعيد بن سنان (ت 466 هـ)، سر الفصاحة ، دار الكتب العلمية ،بيروت، لبنان ،ط1 ، 1402هـ/ 1982م، ص 51-52.

[77] البياتي ، سناء حميد ، التنغيم في القرآن الكريم (دراسة صوتية) ، مركز إحياء التراث العلمي والعربي ، العراق، ص05.

[78] الزركشي، بدر الدين، البرهان في علوم القرآن ،خرَّج حديثه وقدَّم له وعَّق عليه: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان، ط1، ص532/1-533.

[79] سورة التوبة ، الآية 30

[80] سورة المائدة ، الآية 64.

[81] ينظر: السيوطي جلال الدين ، الإتقان في علوم القرآن ، ص107/1.

[82] القضايا التطريزية ،ص297.

[83] القدوري حمد غانم ، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ، مطبعة الخلود ن بغداد ، ط1986،1،ص569.

[84] دلالة التنغيم في اللغة العربية ، ص15.
[85] سورة الإنسان ، الآية 01
[86] الجنابي ، طارق عبد العون ، قضايا صوتية في النحو العربي ، ص376.
[87] نفسه ، الصفحة نفسها .
[88] نعيم اليافي، عودة إلى موسيقى القرآن، مجلة التراث العربي، العدد25-26،د مشق ، أكتور /يناير 1986-1987، ص06.
[89] الكواز، محمد كريم ، كلام الله الجانب الشفاهي من الظاهرة القرآنية، دار الساقي، بيروت، لبنان ، ص 9-10.
[90] سورة النور ، الآية 43
[91] راغب، عبد السلام ، البنية الإيقاعية في الاسلوب القرآني ، منشورات موقع رابطة العلماء السوريين. ص08 www.islamsyria.com
[92] أونج، والترج ، الشفاهية والكتابية تر: حسن البنا عز الدين ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد182، فبراير1994،، ص 44.
[93] ينظر دلالة التنغيم في اللغة العربية ، ص07.
[94] ينظر: نفسه، ص 14.

قائمة المصادر والمراجع :

- القرآن الكريم .

1- أونج، والترج ، الشفاهية والكتابية تر: حسن البنا عز الدين ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد182، فبراير1994.
2- البخاري، إسماعيل بن إبراهيم، صحيح البخاري، شركة الشهاب، الجزائر، د.ط، د.ت.
3- بوروية المهدي، ظواهر التشكيل الصوتي عند العرب حتّى أواخر القرن 3هـ، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه دولة، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 1423هـ/2002م،
4- البابيي، أحمد، القضايا التطريزية في القراءات القرآنية، دراسة لسانية في الصواتة الإيقاعية، على الكتب الحديث، إربد، 2012.
5- البياتي ، سناء حميد ، التنغيم في القرآن الكريم (دراسة صوتية) ، مركز إحياء التراث العلمي والعربي ، العراق. .
6- البيلي أحمد ، الاختلاف بين القراءات، دار الجيل ، بيروت ، ط1، 1408هـ/1988.
7- تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، 1421 هـ/1986م.
8- ابن الجزري، محمد بن محمد الدمشقي (ت833هـ)، النشر في القراءات العشر، قدَّم له: علي محمد الضباع، خرَّج آياته: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 2002م/1427هـ.

9- الخفاجي محمد بن سعيد بن سنان (ت 466 ه)، سر الفصاحة ، دار الكتب العلمية ،بيروت، لبنان ،ط1 ، 1402ه/ 1982م.

10- ابن دريد أبي بكر محمد بن الحسين الأزدي البصري (ت: 321ه) ، جمهرة اللغة، دار صادر ، بيروت، دت.

11- رمضان عبد التواب، التطور اللغوي مظاهره علله وقوانينه، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1412ه/1990م.

12- الرماني أبو الحسن علي بن عيسى (ت 386ه)، النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، الرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني، تحقيق وتعليق: محمد زغلول سلام ، محمد خلف الله أحمد ، دار المعارف ، مصر ، ط3.

13- رحماني، زهر الدين، دلالة التنغيم في اللغة العربية، ص09، من موقعrevue.ummto.dz .

14- الزركشي، بدر الدين، البرهان في علوم القرآن ،خرَّج حديثه وقدَّم له وعَّق عليه: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان، ط1.

15- سيبويه أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (ت180ه) الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط1،د.ت

16- - السمرقندي، أبو الليث نصر بن محمد، بستان العارفين ويليه تنبيه الغافلين، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت لبنان .

17- السيوطي جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، مطبعة الحجازي، القاهرة، دط ،دت .

18- السيوطي، جلال الدين ،الأشباه والنظائر في النحو، راجعه وقدَّم له: فايز الترجيني، دار الكتاب العربي،ط1،دت.

19- السيوطي، جلال الدين، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ضبطه وصححه ووضع حواشيه، فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان، ط1998،1..

20- ابن زنجلة أبو زرعة، حجة القراءات، تحقيق : سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، ط5، 1418ه/1997م.

21- عبد العليم، ابراهيم، الإملاء والترقيم في الكتابة العربية، دار المعار ، مصر.

22- عبد القادر سلامي، الفصاحة بين اللفظ والمعنى، مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق،صفر،1425ه/ أبريل 2005 ،مج 79.

23- العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري،تحقيق: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار الفكر ،بيروت، لبنان، 1996.

24- عمر فروخ ، عبقرية اللغة العربية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1401ه/1981م.

25- الغزالي، أبو حامد (ت505ه)، جواهر القرآن، تحقيق : محمد رضا رشيد الفياني، دار إحياء العلوم ، بيروت، لبنان ،1986.

26- الفاراهيدي، الخليل بن أحمد(ت175ه)،العين، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان،2003.

27- القدوري، غانم حمد ، رسم المصحف دراسة لغوية تاريخية ، اللجنة الوطنية لاحتفال بمطلع القرن الخامس عشر هجري ، العراق ، ط1، 1982م/1402ه.

28- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد ، الجامع لأحكام القرآن ، دار الكتب المصرية ، دط ، 1361ه/1942م .
29- القيسي، أبو محمد مكي بن أبي طالب حموش ت437ه، التبصرة في القراءات السبع، تحقيق: محمد غوث الندوي، الدار السلفية، ط2، 1402ه/1982م.
30- الكشكي، عطية ايو زيد محجوب، قراءات النبي صلى الله عليه وسلم ، دراسة قرآنية حديثية، نشر جامعة الملك سعود، الريا ، 1432ه/2011م.
31- الكواز، محمد كريم ، كلام الله الجانب الشفاهي من الظاهرة القرآنية، دار الساقي، بيروت، لبنان .
32- لبيب السعيد،، الجمع الصَّوتي للقرآن الكريم (المصحف بواعثه ومخططاته) ،دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة.
33- المبرد، أبي العباس محمد بن يزيد (ت: 285م) المقتضب، تحقيق: محمد عبد الخالق عظيمة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1926م.
34- محمد الصادق قمحاوي، البرهان في تجويد القرآن، ويليه رسالة في فضائل القرآن، المكتبة الثقافية، بيروت، لبنان، 1407ه/1987م.
35- محيسن محمد سالم ، المقتبس من اللهجات العربية والقرآنية، دار محيسن، ط1442،6ه/2003م، .
36- المسدي عبد السلام ، التفكير اللساني في الحضارة العربية ،الدار العربية للكتاب ،ليبيا تونس، ط2 ،1986.
37- نعيم اليافي، عودة إلى موسيقى القرآن، مجلة التراث العربي، العدد25-26،د مشق ، أكتور /يناير 1986-1987.
38- الهمذاني، التمهيد في علم التجويد، ص 119 نقلا عن : القدوري الحمد القدوري، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، مطبعة الخلود، بغداد، 1986،ط1.

المعلومات الشخصية :

الباحثة : فاطمة حجَّاري .

العنوان البريدي : سيدي بن شيحة ، سيدي العبدلي ، تلمسان .

رقم الهاتف : 0796481496